ســـــخرية الأقدار

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

كنت فى يوم من الأيام جالساً إلى مكتبي أترقب أن يحمل إلىّ ساعى البريد « حوالة » مالية . وكنت عاكفاً على الكتابة ولكنى كنت أحصى الأبواب والوجوه التى أنفق فيها المبلغ المرقوب . وللذهن قدرة على الاشتغال بأكثر من موضوع واحد فى لحظة واحدة . فبينما كنت أجرى القلم بوصف ما تعانى فلسطين ، وأعرب عما جاشت به نفسى من العواطف من جراء هـذه القنابل التى تلقى على باب المسجد الأقصى وفى الأسواق العامرة الغاصـة ، فتقتل النساء والأطفال والرجال، وتطير أشلاء الانسان والحيوان وتخلطها بالخضر والفاكهة ، واللحم والسمن والعسل ، والأنقاض التى تهاوت ، والقُـفَف التى تبعثر مافيها؛ وأقول إنى أعرف حكومة فلسطين نسفت بيوتاً عدة للعرب ، وفرضت غرامات متفاوتة على قرامم الفقيرة ، ولا أعرفها هدمت بيت يهودى واحد ، أو غرّمت حياً من أحيائهم أو مستعمرة من مستعمراتهم — أقول بينما كان القلم يسحّ بهذا كنت أتخيل الثياب الجديدة التى سأشتريها ، والأثاث الحديث الذى أحب أن يحل محل القديم فى بيتى ، والسيارة الجديدة التى سأستبدلها بسيارتى وإن كان عمرها عاماً ، وأسأل نفسى هل أستشير المرأة الصالحة التى لا تعترض لى طريقاً ، ولا تأخذ علىّ مُتوَجَّهاً ، ولا تنكر من فعلى أو قولى شيئاً ، ولا أراها فى أى حال إلا راضية ، ولا أعرف أن غيرها فى هذه الدنيا يمكن أن يطيقنى ويتحمل عبثي وسخافاتى وحماقاتى ؟

فى هذا كله أيضاً كان تفكيرى . وكنت أتصور الألوان والشيات والأشكال ، وأحاور نفسى وأجادلها، وأتلقى الاعتراضات وأردها ، والقلم مع ذلك لا يتوقف ولا يكف عن المضى ، وجاءنى الخادم بإيصال رسالة بريدية مسجلة لأوقعها ، فاستبشرت وقلت : « الحمد لله جاءنا الخير المرتقب ... خذ يا شاطر فتح الله عليك ، ولك ... (ومددت له يدى بالايصال) وأسرع ... عجل ، ولك الحلاوة »

وخرج الخادم ، وهو يبتسم ، وراح هو أيضاً ولا شك يتخيل ما سينعم به فى يومه السعيد « بعد أن أعطيته الحلاوة » الموعودة . ومضيت أنا فى الكتابة ، منتبطاً ، وإن كان القلم يقطر بالنقمة على رءوس المستعمرين ، ورأيتنى أدندن ، وأنا أجرى القلم ، ولم لا ؟ ألست مسروراً منشرح الصدر ، ولا نكران أنى كنت ساخطاً ناقماً ، ومغيظاً محنقاً ، وثائراً فائراً ، ولكن هذا جانب ، وذاك جانب ، فانا — فى الجانب المشرق الوضاء من نفسى — أشعر بالاغتباط والمرح ، فأدندن ، ولكن هناك جانباً آخر حالك السواد لا يضيئه إلا ما يتهاوى فيه من صواعق الغضب، والجانبان لا يختلطان ، ولا يتداخلان ، ولا يعدو واحد منهما على صاحبه ؛ فالسواد هنا لا يعصف بالبشر المتألق ، والسرور هناك لا يمتد نوره إلى الظلمة الطاخية ...

وعاد الغلام الخفيف الحالم بالحلاوة ، ودفع إلىّ الرسالة المسجلة فنظرت إليها وأنا أتناولها منه ، وعرفت ممن جاءتنى قبل أن أفض غلافها . ولم يكن هذا لأنى ذكي ألمى أرى بأول الظن آخر الأمر من وراء الغيب ، بل لأن الاسم مطبوع على الظرف

وابتسمت وأنا آخذ الرسالة ، وأضعها على المكتب كما هى ، وأنقدت الغلام المسكين قرشين ، وأكببت على الورق أكتب .. وماذا عسى أن أصنع غير ذلك ؟ لم تجىء الحوالة المالية المرتقبة ، ولا ضير من هذا ، فما كانت بى حاجة ملحة إليها ، وهى خير إذا جاء فأنعم به وأكرم ، وإذا لم يجىء فلا بأس ، وستجىء على كل حال غداً إذا لم تجىء اليوم أو بعـد شهر أو أكثر ، ولو اقتصر الأمر على حرمان ما نعمت نصف ساعة بتخيله لهان ، ولكن المضحك ....نعم المضحك ... أن يجيئنى بالبريد المسجل فى هذه اللحظة على الخصوص إنذار من محام بتنفيذ حكم صـدر خطأ فى غيابى ، وعندى المستندات التى تثبت أني أبرأت ذمتى ، ولكنى لسوء حظى مهمل وشديد النسيان، فلست أذكر أين وضعت هـذه الأوراق ، وقد كلفنى هذا النسيان مالا يعلمه إلا الله ، وبدا لى — لساعتى — أن من السهل أن أقنع الخصم بمراجعة أوراقه وحسابه ليتبين أني أديت إليه حقه . وخطر لى أن هـذا أسهل من عثورى أنا على مستنداتى التى لا أدري ماذا صنع بها الاهمال ، وكان الخصم يضحك منى ويقول للحاضرين « اسمعوا ... هذا جديد ... يريد منى أن أقدم أنا له ما يثبت براءة ذمته ! ! فلماذا لا يعد هو مستنداته ؟ » فأقول له محتجاً « يا أخى إن المسألة ليست مسألة خصومة وعناد ، وإنما هى مسألة ذمة وحق ، وعندك دفاتر مسجلة تقيد فيها مالك وما عليك

وأوراق لا أدرى أين هى ، والبحث عنها يضيع وقتى ، ويطير عقلى ، ولا صبر لى على هذا على كل حال ؛ ولأهون على أن أؤدى إليك المال مرة أخرى من أن أنفق عمرى وأطير صوابى فى البحث عن هـذه الأوراق ، فلماذا لا تؤثر العدل والحق فتعاوننى ؟ إنك ناس، والموكل بهذا الحساب قد ترك عمله عندك، والمراجعة لا تجشمك عناء ، فمر واحداً من عمالك أن يقوم بها »

وقد ضاعت سنتان من عمرى وعمره فى هذه المراجعة التى لم تخل من بعض الفائدة ، فقد اهتدينا إلى مبالغ ثبت أنى أديتها فتزعزعت ثقته بعامله الذى أكد له أني ما زلت مديناً ، ولكن دفاتره كانت على حال من الفوضى كالتى عليها أوراق في بيتى . ويظهر أنه سئم أو تبلد فلم يعد وخز الضمير يؤلمه أو يزعجه ، فقال أنفذ الحكم عليه بما لم نجد دليلاً على أدائه وأريح نفسى ، وعليه هو — لا علىّ أنا — أن يبرىء نفسه بإبراز ما عنده !

وهكذا تلقيت إنذاره

وأعمت المقال ثم فضضت الظرف وقرأت ما فى الكتاب وضحكت . لقد كنت أنتظر فرجاً أوسع به على نفسى ، فإذا بى أطالب بأداء دين مرة ثانية !؟ فماذا أصنع ؟ قلت لنفسى — وكان اليوم الخميس — هذا موقف ممتع . وخير ما أصنع هو أن أركب سيارتى وأستصحب بعض الرفاق ، ونمضى جميعاً إلى الاسكندرية فنقضى على ساحل البحر أياماً وليالى ننسى فيها سخرية الأقدار وتهكم الأيام ...

وقد كان . قمنا إلى الأسكندرية قبل الغروب بساعة ، فلقينا فى رحلتنا ما هـو أعجب وأغرب ممـا سأقصه على القراء فى المقال التالى

إبراهيم عبد القادر المازنى

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكى (باب اللوق)
ومن المكتبات العربية المشهورة

صحيفة وصف وأحلام

النـــــادى

للأستاذ حسن القاياتى

بكّرتُ إلى ضاحية نضرة مونّقة ألفت أن أزور نادياً فيها يتألقنى بشفوف حسنه الصامت ، ويقر بعينى أن أبادله أنفاسى الحرار ببرد نسيمه الذى يأذن له فيتلعب بغلائل زائراته من الغانيات بأرفق من تلعب العيون بالقلوب ، ويطيب لى أن أشهد سكونه المعجب لا يحس فيه غير نبض الجوانح بالحب ، أو مُسرى العيون بنظرة مدلهة

كم خلوت في هذا النادى بنجوى الأمانىّ الحسان كأنمـا أتناولها من رقعته النضرة الغضة ، وللأمانىّ فى الجو الطلق رفيف كرفيف نسمته يَتندّى على الكبد

أمانىُّ من ليلى حسان كأنما سقتنابهـا ليلى على ظمأ بَرْدا
مُنًى إن تكن حقاً تكن أحسن المُنَى وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رغـــداً

المتنزه أو النادى جنة معطار بالنسيم ، يتيامن قليلا عن الطريق الشارع حيث المدينة ، ويتياسر شيئاً عن المزرعة حيث الريف ، فهو بينهما قائم يشرف على رقعة نضرة ، كأنه الحد بين مصنوع الحسن ومطبوعه ، وتلك من أكبر ما يغرينى به ، فقد طبعت على خلال من حب الوحدة إلى غاية من التبرم

أما النادى فى صورته فبناء مؤلف من طبقتيه السفلى والعليا ، بيد أن عليا الطبقتين خلاء من كل ناحية ، سقف على عمد ، هل رأيت مظلة فى يد ؟

تشافهه ذكاء شارقة غاربة ، فتطالعه فى مشرقها بوجه وضاح متهلل يعيره فى المشتى أنفاساً حِرارا كأنفاس الصبابة ، وصفرة فى أصائل المصيف كصفرة المحب ، فاترة اللمح والحرارة ، فناهيك من مصيف ومشتى

الخضرة حول المتنزه مائدة ، ربما أريق عليها عسجد الشمس فهى بساط رائع ، كأنما التفت عليه الخضرة والصفرة فى سدى ولُحمة ، تؤلف نقوشه من زهرات ترفات لم أر أملح من الفراش